

النداولية والسيمائية

أ.م. كريمة ر.أ. لندوفسكي

محمد الداوي

ملاحظات أولية :

إريك لندوفسكي

في إطار انشغال السيمائية
 بالتقابل المنهجي ، فإن الأمر
 يقتضي منها أن تتخذ موقفاً إزاء
 أحد روافد البحث الرائجة حالياً في
 مجال العلوم اللغوية سواء بفرنسا
 أو بغيرها من البلدان ، ونعني به التداولية . لم تُتَح الفرصة إلا مؤخراً
 بفضل مبادرة الأستاذ جيرار دولدال Gérard Deledalle الذي ندين له
 بتنظيم مناظرة حول السيمائية والتداولية برحاب جامعة برينيان
 Perpignan (معهد علوم التواصل والتربية) من ١٧ إلى ١٩ نوفمبر
 ١٩٨٣ .

يعاد في هذا العدد من *أفعال سيمائية*^(١) طبع مداخلة كريماس
 والعرض الذي تفضلت به دون أن يلحقهما أي تغيير . فهذان المقالات
 (أحدهما أرسله كريماس نتيجة إصابته بوعكة صحية ، والآخر قدم
 مرتجلاً) يقترحان في الآن نفسه أهدافاً مختلفة ومتكاملة . فالمقال الأول،
 والذي تم تحريره بعد استشارة جون كلود كوكي J. C. Coquet وباولو
 فابي P. Fabbi وجون بوتيطو J. Petitot ومقدم هذه التوطنة ، يستعرض
 الظرفية الابتسولوجية العامة ، ويقدم أرضية للنقاش وآفاق العمل ؛
 وذلك بموضعة مجمل المشاكل المطروحة في إطار نظرية عامة
 وضرورية للغة . في حين يقدم المقال الثاني بعض المبادئ المنهجية

التي يمكن للسيمائية أن تقترحها اليوم لإعداد معالجة منسجمة ومدمجة لجماع من القضايا المألوفة عند السيميائيين (على نحو التفاعل والسياق...).

تدخل باقي المداخلات المتميزة (نخص بالذكر مداخلة جون كلود كوكي ومانار حماد M. Hammad) في إطار المنظور نفسه المسطر للمناظرة؛ إذ أوضحت الفعل السيميائي بطريقة مقنعة، وعملت على بيان كيف تعالج السيميائية بصفة خاصة معضلة المرجع المعتادة لدى التداوليين، سواء بمجابهة الواقع بالحقيقة أو بتشغيل الفضاء التلفظي؛ وذلك دون أن يكون هذان الإجراءان متوازيان مباشرة مع أمثالهما المستعملين من طرف التداوليين. سننشر هذه المداخلات في موضع آخر. اقتصرنا في هذا العدد على المواقف الاستمولوجية والمنهجية المتقابلة. وإن نشرها - هنا أو في نشرة خاصة - سيتيح إمكانية فتح النقاش مع باقي المقاربات، شريطة أن تحدد مسبقاً بعض قواعد اللعب. ربما لم يثر النقاش الحقيقي، ليس بسبب انتفاء المادة وتغيب المتحاربين، بل بسبب سعة الميدان. لقد جرت العادة بالأنا تلتزم المناظرة بموضوعها المحدد. والحالة هذه، إذا أريد فعلاً إثارة النقاش مع السيميائية، يجب على الأقل إقامة تمييز واضح بين ما يتعلق بالتداولية الفلسفية ذات التقليد السائد في الشمال الأمريكي (وهو الذي يتموضع فيه بورس Peirce، وينتهي بالتفكير في منزلة الأدلة signes وتنميطها) وبين ما يشكل المقاربة التداولية للخطاب بمعناه الحصري... وإن مازالت هذه الياقطة لم تحظ بعد بالإجماع لقبولها واستخدامها. فهذا التقليد الثاني - الذي لا يمت بصلة إلى بورس - هو الذي يفرض أساساً اليوم إلى نظرية أفعال الكلام إذ يمكن أن يكون التقابل - وقبل كل شيء - مفيداً للسيمائية^(٢).

كما أشار إلى ذلك هرمان باريت H. Parret ، فإننا نعرف المتحاربين المفترضين الذين تتوجه إليهم السيمائية منذ مدة ، كما أولت الاهتمام بظواهر التفاعل والتحقق والصَّوْغِ السِّيَاقِي والتلفظ . يصعب في نظرنا تبرير المجهودات التوضيحية التي تشهد عليها (كما نتمنى) الصفحات الموالية . لكن ، من أجل أن يتحقق فعل التواصل فعلاً - وهذه حقيقة يعرفها التداوليون كذلك - لا يكفي فقط أن نتكلم ، بل ينبغي كذلك أن يوجد مع من نتحاور .

ملاحظات ابستمولوجية

أ. ج. كريماس

إذا التزمت ، بسبب تغيبي الاضطراري عن هذا اللقاء ، بأن أعبر بمثل هذه الطريقة غير المباشرة ، فلأنني مازلتُ أؤمن ، في مجال العلوم الاجتماعية ، بأهمية التقابلات التي يستحسن أن تحل محل التصادمات أو الاستتصالات المحقرة . يبدو لي التقابل قابلاً لاستنتاج ليس فقط تقاربات مرضية ، بل لبيان كذلك الاختلافات ؛ وذلك بتوضيح ما إذا كان الأمر يتعلق باختلافات بسيطة أو بتنافرات ابستمولوجية ومنهجية ، أو بملاحظات مقبولة تهتم عدم تقاطع مجالات التطبيق المعنية. في هذا السياق ، سأحاول أن أصوغ بعض الملاحظات حول الشيء القليل الذي أعرفه عن التداولية ، وسأضعها في موازاة مع المواقف التي تتبناها السيمائية .

ما يصعب على السيمائية تشييد - بواسطة تداخل التعاريف الصارم بين المفاهيم - لغة واصفة متماسكة ، وموضعة المشروع ، وحصر تخوم التداولية ، هو وجود غموض ما - لسبب مبدئي أو نفعي - في طرائقه وصياغاته ، بحيث نعاين صورته من النوع المنطقي ،

وملاحظات باللغة الطبيعية (لقد سبق لفينر Wiener أن لاحظ أن اللغة الإنجليزية تعتبر لغة واصفة بالنسبة للغة الصينية). كل شيء يحدث كما لو أن تعدد هذه المرجعيات الابدستمولوجية ينعكس على الإجراءات المعمول بها لوصف حالات الأشياء .

نقر بصفة عامة أن التصور الأصلي للتداولية يكمن في استعمال البقايا التي لا تستطيع السيميائية المدركة على الطريقة الفينية (نسبة إلى فيينا) (التركيب والدلالة متلاحمان) أن تعالجها . ربما تبرر أصولها "الشعبية" جزئياً غياب نظرية عامة تفسيرية لجملة من الوقائع المسلم بها وغير المنسجمة .

نفهم ببساطة المصادفة (نفكر خاصة في الخيبة الناتجة عن عدم وفاء النحو التوليدي بالوعود ، وبالضبط في الأزمة الابدستمولوجية التي تعاني منها العلوم الاجتماعية حالياً) التي جوزت إسناد محتوى إيجابي لتلك البقايا ؛ وذلك بإعادة تئمين - على نحو يبدو لنا مبالغاً فيه - المقام على حساب النص ، والاستعمال على حساب النحو الذي مازال ، مع ذلك ، موجوداً بالحاح ، إن مثل هذا القلب للطريقة يبدو في الوهلة الأولى مشروعاً في نطاق أنه يناسب الترجحات الجدولية الملاحظة في تاريخ أي بحث ، فالتنقلات المتتالية من وجهة إلى أخرى ، يمكن أن تعتبر متكاملة ومثمرة . ومع ذلك ، لا يجب أن نغفل الأفق الابدستيمي (بالمعنى الدقيق للكلمة) الذي تنجز على أساسه هذه التطبيقات : يتعلق الأمر بإبستيمية وضعية موروثة عن القرن التاسع عشر ، وتتميز - في ما يهمنا - بالتصور التشخيصاتي représontationaliste للغة الذي يختزلها إلى مجرد وظيفة لوصف حالات الأشياء . وبما أن التداولية تتشخص بوصفها رد فعل ضد هذه المواقف الاختزالية ، فإنها تبقى محصورة في أغلب هذه الطرائق داخل الإطار الضيق لمنطق المرجع ، ولا تتوطد - إن صح التعبير - إلا في الاختلاف . ومن ثمة ، فهي

تظهر كتعبير عن خصوصية عائلية وضعية ، لا يمكن لها أن تشغلنا . في الواقع ، لا يمكن بالنسبة لنا الموضوع الأول للسميائية في تحليل المرجع - ولا حتى الوهم المرجعي - بل في تحديد شروط إنتاج المعنى وإدراكه ؛ وذلك مادام من الحقيقي أن حالات الأشياء (مهما كانت مزيفة) لا تكشف أبداً (دون المشاركة الفعالة والأساسية للذات) عن مدى تحمل الإنسان معاني العالم على عاتقه . إنطلاقاً من البنى الأولية للدلالة تعمل السميائية على استنباط نحو سيميائي - سردي قادر على توليد مواضيع سيميائية أي هذه الحالات للأشياء التي تَظُنُّ بعوالمنا الفردية وثقافتنا . من حسن الحظ ، يوجد - بالمفهوم التداولي - مجال للتطبيق مختلف جداً ، ويبدو أكثر ارتباطاً باهتماماتنا بما أن التداولية مستوحاة من فلاسفة أكسفورد (يمكن أن نلاحظ أن التداوليين ذوي هذا النزوع يعتمدون في غالب الأحيان على ممثلي فلسفة اللغة المتداولة على نحو كرايس Grice وسيرل Searle ، وليس على التشخيصيين *représenta listes*) فهي تبدو لنا عادية ، لأن المكتسبات النظرية لأوستين Austin سبق لبنفنيست Benveniste منذ مدة أن أدمجها في شكل تأملات حول التلفظ والتخطيب *la mis en discourse* ⁽³⁾ ضمن مجمل الإرث السوسوري بمأن السيميائي يتعامل عفويّاً مع التلفظ - وليس مع شبيهه *simulacre* في الخطاب - بوصفه فعلاً لغوياً ، فإن إشكالية أفعال الكلام لا يمكن أن تكون إلا ملامحة . هل يمكن للسميائي على الأكثر أن يتأسف لكون الاكتشافات الملامحة غالباً ، والتي يعاينها بالمناسبة متموضعة بشكل كبير في السطح اللغوي ، لا تسمح بتحديد نوعية كفايات الذات (المتكلمة والفاعلة فقط)، مع العلم خاصة أنه في باقي المجالات (على نحو مجالات الاقتضاء والاستنباع) يتم استدراج التداولية للتسليم بوجود مستوى دلالي عميق جداً . لم نصدع بكل شيء : من بين اكتشافات التداولية ، نجد الطابع غير المباشر أو الخادع للخطاب . وهذا لا يمكن أن يثلج صدر الأوروبيين الذين لم يروا في اللغة قبل صدور كتاب *خرافات* Mythologie لبارث

غطاءً مُضمناً شيئاً ما بقيم الحقيقة وحقيقة الأشياء ، بل نسيجاً من الأكاذيب وأداة للتطويع الاجتماعي : تعالين الآن تقارب وجهات النظر حول أهمية تفريع الخطاب .

تحقق تقدم التداولية بإدراج الخطاطة المستوحاة من أوستين ، وهي تبين اشتغال اللغة في وضعية التواصل بمعناه العام ، وتكشف عن لعبة تفاعل الأدوار الصيفية - الأخلاقية éthio - modaux المعقدة جداً . ومع الأسف ، يبقى هذا المنفذ غير مستغل ، لأنه عوض أن يحض على إقامة نحو الفعل والتفاعلات الدالة (المماثل لنحونا السيميائي - السردى) الذي يبرر ويكشف عن إشارات البشر ومحنهم ، يكتفى الآن - على ما يبدو لنا - بتداولية تخاطبية هامة جداً ، وبإتجاز طوعاً جرداً للسينايويوات المنطبقة على الوضعيات . أمام توسيع المجالات الإشكالية ، واستيعاء الإمكانات المقدمة للطريقة التداولية ، نعالين - إذن - اختلاف الأبحاث . فبعضها يحاول أن يشغل الأرضية التي يرغب علم النفس أن تبقى ملكاً له ، وبعضها الآخر يميل شطر علم الاجتماع على طريقة كوفمان Goffman . إنه انتصار مريب يخاطر بالإفضاء إلى تكوين نوع من علم النفس الاجتماعي - الأسلوبى .

يمكن للسيمائي أن يقتنع بذلك ، خاصة وأن خطراً مماثلاً يهدد كذلك مجاله الخاص ، إذ أصبحت مطامحه بخاصة اعتبار البعد الخطابي للغة ، وإدماج السيميائيات غير اللغوية) عصية . سواء في الحالة الأولى أو الثانية ، لا يمكن إلا أن نتمنى الخروج بنظرية عامة للغة ، تسعى إلى إقامة علاقات متكاملة وضرورية بين التركيب والدلالة والتداولية ، وذلك على النحو الذي تحاول فيه السيميائية التوفيق بين النحو السيميائي - السردى العميق وبين تقنين الإجراءات التلفزية للتخطيب . يمكن للسيمائية والتداولية عند هذا الحد بالضبط أن يؤديا وظيفتهما الخدماتية ancillaire الأكثر نبلاً ؛ وذلك بالمساهمة في تكوين العلوم الاجتماعية .

إن الملاحظات المقدمة ، يجب أن تعتبر - وهي بالضرورة كذلك - جزئية أو متحيزة ، ملائمة و/أو غير ملائمة . وكيفما كانت طبيعتها ، فهي ربما تصلح لفتح باب النقاش المعن والمستحب والمرغوب فيه .

بعض الشروط السيمائية للتفاعل

إريك لندوفسكي

١ - إذا اجتمع التداوليون والسيمائيون مرة أخرى ، فلأن كل طرف عنده ما يمكن أن يفيد به الطرف الآخر . بمعنى أن المقام يقتضي أن يشتغلا معاً . ما يفرض ، في أحسن الأحوال ، وجود قاسم مشترك بينهما ، هو اتفاقهما معاً على الإشكالية نفسها . لقد سبق لهرمان باريت منذ سنوات أن نشر كتاباً ضخماً موسوماً باللغة - في - السياق^(٤) ، يضم بين دفتيه دراسات تداولية . ما نود إبرازه هنا ، هو ببساطة الأسباب التي تجعل الصيغة المقترحة (رغم تباين المصطلحات واختلاف التصورات التي تكتسبها أحياناً) يمكن أن تلتزم إلى حد ما السيمائيين ؛ وذلك ليس بوصفها صياغة دوغمائية ، وإنما باعتبارها عنواناً لمعضلة ، سنسعى كسيمائيين أن نقدم لها اقتراحات نظرية ومنهجية .

٢ - خلال الخمس عشرة أو العشرين سنة الأخيرة ، قطعت السيمائية (بصفتها تضم بعض أتباع كريماص الذين يعملون على تطبيقها) مساراً يمكن أن نشخص خطوطه العريضة في ثلاث مراحل بما أنها ظهرت كرد فعل لتجاوز علم المعجم الكلاسيكي ، فإن التفكير انحصر في البدء على البنى الدلالية التي تشترط إنتاج الدلالة وإدراكها (التحليل المقومي المستوحى من يالمسلف Hjelmslev ، وتصنيف الاختلافات ضمن الخط الذي رسمه جاكبسون Jakobson ، والتمثل المسبق للمربع

السميائي) ، ونظراً لمتانة فرضياتها الأولية ، فإن البحث كُرس - إذن - لفهم المستوى الأكثر سطحية (إن صح التعبير) ؛ إذ تستثمر المحتويات الأولية المصنفة مسبقاً في صور العالم (مواضيع قيمية ، وذوات متصفة بسمات إنسانية) ، وستعالج - بوصفها على هذه الحال - وفق بعض الضوابط التي سيفضي الاعتراف بها إلى تنظيم وبناء نحو سردي ؛ وأخيراً ، تم تسخير الجهود خلال المرحلة الأخيرة لمعالجة مشاكل تخطيب البنى السميائية - السردية للمستويين الأوليين (العميق والسطحي) .

وهكذا ، فالمسار^(٥) الذي قطعتة السميائية لا يمكن إلا أن يذكر البعض بالثلاثية الشهيرة : بعد صياغة مبادئ الدلالة البنيوية المدركة بوصفها في قمة التراتبية ، قمنا - كما هو معلوم - بتطوير التركيب السردي المتفرع عنها ، حتى ولو اقتضى الأمر إدماج في آخر المطاف مجمل هذا البناء في إطار تداولية خطابية ، تعتبر ملحقاً ضرورياً إن أردنا من نظرية مشيدة على المحايثة أن ترتبط في لحظة ما بتجريبية الوقائع السميائية ، وباللغة - في - السياق التي انطلقنا منها . إن مثل هذا التفسير هو بدون شك ممكن ، إن لم نقل مغر . لكنه لا يبدو لنا مناسباً : يوحي بفكرة تطابق وتقارب الإشكالات شبه المستقلة ، والتي لا تمت بصلة إلى روح وغاية الطريقة التي نحاول عرضها . فوراء هذه التحفظات ، ليس التقسيم الثلاثي البورسي ، هو موضع تساؤل . بالعكس ، حتى من المنظور البنيوي الأوروبي (الذي هو منظورنا) ، فإن تمييز الدلالة من التراكيب ومن التداولية سي طرح نفسه من الآن فصاعداً بوصفه تمييزاً استكشافياً أساسياً لا يمكن رفضه قطعاً . ومهما يكن ، فهو يحتفظ - كما هو معلوم - بطابعه الإشكالي .

بالمقابل ، ما يثير الإشكالية ، هي طريقة إيجاد تلاؤم بين العناصر الخاصة بالنظامين التصوريين القائمين : بين مقولات التصنيف

الثلاثي لبورس وموريس Morris وبين لحظات أو مستويات تشييد السيميائية من النوع البنيوي الذي ندعو إليه . إن التفسير الأولي الذي سبق لنا أن قدمنا تحفظات حوله ، يرتكز على فرضية تبادل المعنى بين عناصر النظامين : تتماثل في هذه الحال إعادة تشييد البنى الأولية للدلالة مع دلالة خالصة ، ويتشابه النحو السردى مع التركيب ، ويبقى مستوى واحد مهياً لإبراز التداولية ، هو المتعلق بالخطيب . بطبيعة الحال ، في حالة ما إذا تبيننا هذا المنظور ، فإننا سنقر بأن السيميائيين يتشبثون كثيراً باتخاذ الموقف نفسه الذي يؤاخذ عليه كثير من اللغويين (سواء أكانوا بنويين أم لا) ، والذي يكمن إما في تجاهل - وهذا هو الأظفر - المقام الذي يرتبط به الموضوع^(١) ، وإما في بذل - على الأكثر - مجهودات عبثاً لاسترداده ؛ وذلك بربطه بالنظرية في شكل ملحق متنافر إلى حد ما . في حين نعتقد أنه يمكن أن نثبت بدقة أنه لا يتمشى إطلاقاً مع الحالة التي تشغلنا . وهذا ما يقتضي إمكانية بيان (وهو ما سنحاول أن نسلكه) أن المكون التداولي لا يلعب هنا مجرد دور ملحق ، بل يوجد ، على العكس ، على قدم المساواة مع المكونين السالفين (الدالي والتركيبى).

٣ - ومع ذلك يُتخذ - قبل كل شيء - موقف عام سيحدد ما تبقى . ولا يمكن له طبعاً - بصفته صادراً عن السيميائي - أن يتموضع في أي مستوى آخر غير مستوى الإدراك الذي نكونه عن المعنى . وإذا بسطنا أكثر - ودون الدخول في الإنعكاسات الفلسفية لمشكل - يمكن ، في هذا الصدد أن نعين موقفين متعارضين . إن الموقف الأول الذي قدم له كارناب Carnap تفسيراً نموذجياً ، والذي تخلص منه التداوليون أنفسهم^(٧) ، يتميز أساساً - على الأقل من وجهة نظرنا الخاصة - بمظهره المرجعي . في إطار هذا المنظور المشيد على مسلمة مفادها أن معنى قضية ما يتعلق بقيمة حقيقتها ، فإن الدلالة الوحيدة الممكنة

ستكون هي علم الحساب المنطقي القابل للتحقق بعد الاعتراف بأن حالات الأشياء هي مراجع ينبغي أن تقوم محتوياتها المفترضة . والحالة هذه ، يمكن أن نتساءل عن ماهية ما يسمى بحالات الأشياء . لا نأخذ التعبير بمعناه الحرفي ، ونقر بأن حالات الأشياء المعنية هنا ، لا تحيل بالضرورة على تصور واقعي ساذج ، وإنما تتضمن وضعيات محددة داخل العوالم الممكنة غير المتناهية . حتى في مثل هذه الحال ، فإن الإشارة المرجعية نفسها ، هي التي تتجلى - سواء أكانت مدركة بالمصطلحات الأنطولوجية أم (هنتيكا Hintikka) - في إطار أن وضعانية la positivité مستوى من الحقيقة معطى كما لو كان في الدرجة الأولى (موضوعي ، خارج عن المعنى ، باختصار خارج - سيميائي) تتحكم دائماً في وجود حقيقة مطروحة ، على نحو مترابط ، كما لو كانت في الدرجة الثانية (إنها ، بالضبط ، حقيقة المعنى) .

بالعكس من ذلك ، تتمتع السيميائية (كما نريد بشكل أكثر جذرية وريبة وسخرية ، وفي هذا الصدد على نحو أكثر اقتراباً من فجنشتاين Wittgenstien رغم أننا لا نصرح غالباً بذلك) من أخذ المراجع الاجتماعية على محمل الجد كيفما كانت حالتها . ليس ذلك نكوصاً مثالياً للميزان الميتافيزيقي الذي يفضي إلى رفض الواقع أمام من يعتبرونه قاعدة أساسية في حساباتهم ، وإنما تبعاً لغاية إجرائية محددة جداً . إن الهدف يكمن في إدراك المعنى . لكن الأشياء عينها تتضمن معنى بالنسبة للإنسان . لا نتواصل فقط بواسطة الكلمات والجمل والملفوظات وأفعال الكلام والحكي ، بل كذلك نقرأ ونفسر ونجعل الأشياء دالة أي العالم المحسوس (أو الخيالي) الذي يكتنفنا . وعليه ، إذا كانت حالات الأشياء المقصودة هنا - في جانب من الجوانب - ملاحظة من زاوية إدراك المعنى ، فلذلك ليس بوصفها معطيات مباشرة ، وإنما باعتبارها ناتجة عن كفاية سيميائية قادرة على تشييد عالم دال .

٤ - من هذه الزاوية ، ليست هناك حدود للسميائية ، إن لم نقل على الأكثر لسميائيات مختلفة ، بعضها يتجلى في تنوع اللغات الطبيعية ، وبعضها الآخر يُدرك بوصفه سميائيات للعالم الطبيعي . وهكذا ، لما ندمج طوعاً في مجال ملائمة النظرية السميائية تعدد الأساق أثناء إنتاج المعنى ، فهي تتسلح بوسائل تجديد مقاربة السلسلة الأولى من الظواهر ذات طابع تداولي .

يتمشى ذلك فعلاً ومنذ البداية مع تصور معين للسياق : ليس قبل اللغة أو بعدها بل في قلبها . هكذا ينبغي أن تثبت الصيغة ، لأنه إذا لم توجد أي حقيقة أولية قبل اللغة يمكن أن تشيد معنى المعنى ، فإنه ستتفنى حتماً بعد اللغة حقيقة لاحقة ، تنحصر مهمتها في إيقاف معنى المعنى . نأخذ اللغة هنا بمعناها الواسع ، أي بوصفها متضمنة لمجموع الأساق الدالة - لغوية كانت أم لا - المتوفرة في ثقافة ما. تتأوب - كما نرى - صيغتنا أو بعبارة أخرى عالم المرجع (وكذلك الواقع) باعتباره لغة : لغة ضمن لغات أخر ، لا يعطيها الامتياز أي شيء ضروري أو مطلق (ليس من طبيعة الأولوية الأنطولوجية ولا من طبيعة الأولوية المنطقية) ، بل يتوقف فقط على المكانة التي أعطيت له بالمقارنة مع باقي الأساق السميائية المشيدة كذلك .

وبناء على ما سبق ، بخاصة فيما يهم تحليل الخطاب اللغوي بحصر المعنى ، فإن الانتقال من المقاربة المنطقية القائمة على معياري الحقيقة والكذب المطبقين على العلاقات بين الخطابات ومراجعتها (بين اللسانيات وخارج لسانيات) إلى معضلة التحقق *Véridiction*^(٨) التي تنغيا فهم إنتاج بعض آثار الحقيقة أو الواقع . نكتفي في هذا المضمار بذكر المنظورات المنهجية الأساسية التي تُجزأ الآن . نعرف النتائج المستنتجة (بغرض تحليل الآثار التحقيقية *véridictiores* للخطاب الشعري)

من جراء اكتشاف بعض أشكال تنظيم الخطاب التي تركز على إقامة تماثل بين صعيدي اللغة (العبرة والمحتوى). مكنت في الآونة الأخيرة دراسة مختلف أنواع الموضوعات السيميائية التأليفية (التي تجمع ، كما هو الشأن مثلاً في الإشهار ، بين الصورة والنص) من وجود تطابقات صورية معقدة جداً ، لا تنتقل فقط من صعيد إلى آخر داخل اللغة نفسها ، وإنما كذلك بين جميع الأصعدة الخاصة بلغتين مترامنتين في العمل ، وبالتالي بين تنظيم الدال البصري للإعلان الإشهاري وبين المدلول البصري الذي يضطلع به البعد اللغوي^(٩). إن هذه الملاحظات التي ترتبط بإشكالية الأساق المنعوتة بشبه الرمزية ، لا يمكن إلا أن تذكر بمثيلاتها المتقدمة التي ترجع إلى كلود ليفي ستراوس - Claude Lévi - Strauss ، والتي تهم اشتغال الخطاب الخرافي . يمر المعنى هنا كذلك عبر شرح الترابطات القائمة في العمق بين مقولات متعلقة على الأقل بنسقين سيميائيين مختلفين : بين البنى الأولية المتضمنة في الخطاب اللغوي للخرافة وبين البنى الخاصة بأساق (سيمائية ، لكن غير لغوية) تنظيم العالم المستحضر ضمناً في شكل شفرات المراجع أو السجلات ذات طبائع مختلفة جداً (فلكية وحيوانية ومطبخية) . ضمن السياق نفسه، يجب أخيراً ذكر محاولة جديدة لإعادة تحديد الواقعية في الأدب ، تنضه هنا كذلك ببيان إجراءات التماثل ذات الوظيفة التحقيقية ، لكنها تضطلع بالربط بين تنظيم نسق القيم الخاصة بالعالم الروائي المعني وبين التنظيم الخاص بالخطاب الفضائي (التصويري والطبوغرافي) الذي يشكل النص صعيده المرجعي^(١٠).

كل هذه الأبحاث - كما هو معروف - بعيدة كل البعد عن الاهتمامات الفورية للتدولي . ومع ذلك ، نعتقد بأنها ليست غريبة جداً عنه . وبما أنها تركز على الأسس البين - سيميائية - Inter

sémiotiques لإنتاج أي معنى ، وتبين بعض اشتغالاتها ، فهي تدل بالعكس - على ما يبدو لنا - على جماع من الحلول الممكنة لمعالجة مدمجة لمشاكل ربط الخطابات / المواضيع بالسياق . لا يتجلى هنا إلا وجه من القضية العامة. فنقاط الالتقاء بين طرائق هذا الطرف أو ذاك ، يجب ، بأي حال من الأحوال ، أن تكون جلية كلما قمنا بتقريب المستويات الأكثر سطحية للمسار التوليدي المعتاد عند السيميائيين .

٥ - ما بين المستوى العميق الذي ترتبط به البنى الأولية المشار إليها سلفاً وبين مستوى البنى الخطابية الذي تركناه جانباً^(١١)، يتموضع المستوى الوسيط للبنى المنعوتة بالسطحية الذي يشكل موضوع النحو السردى . والحالة هذه ، فإن هذه التسميات تخفي طموحاً جامعاً ، يتعلق ، على الأقل في نهاية المطاف ، بتشديد نظرية عامة للفعل ، وبإنجاز ، بأي حال من الأحوال وبطريقة فورية ، سيميائية الفعل. إن مثل هذا العمل - رغم بدايته - لا يمكن إلا أن يقيم بعض العلاقات مع المشروع النظري (وإن كان محلياً فهو متماش مع تصورنا) الذي يستهدف هذا الصنف من الأفعال الخاصة التي تسمى أفعال الكلام ، وهي مألوفة عند التداوليين .

ربما تكمن صعوبة حصر مكان الاختلاف الممكنة في الصعوبة ذاتها للمفهمة السيميائية . تبرز ، في هذا الصدد ، حركتان شبه متعارضتين . نعاين توسيع التداولية تدريجياً (إن لم نقل بالضرورة) لمجال الملاءمة المحدد سلفاً . كلما تعلق الأمر - قبل كل شيء - بفهم الوظائف الكلامية illocutoirs (المعاكسة للتقريرية Constatives) للغة ، فإنه يتوجب منذ البداية التكهّن - إلى جانب المعايير التفسيرية ذات الطابع اللغوي المحض - بتدخل المواضيع التي لا يمكن أن نموضعها إلا في إطار علم النفس الباطني (شروط الصدق عند أوستين) ، وإضافة إليها مختلف القواعد المتعلقة فعلاً بعلم الإناسة العام

للتواصل أو استبدالها بها (المبادئ التخاطبية عند كرايس)؛ وذلك لإدماج في آخر المطاف البعد الاجتماعي المحض ، مع أخذ بعين الاعتبار، بطريقة فعلية أو مجرد إسقاطية ، أدوار المنازل المسندة إلى المشاركين في التواصل^(١٢). إنطلاقاً من اللسانيات بالمعنى الصارم ، وفي نطاقها ، تدمج الطريقة القواعد والمتغيرات السياقية الأساسية شيئاً فشيئاً وطوعاً أو إكراهاً لدعم درجة تلاؤم النظرية (إن لم نقل انسجامها). بطبيعة الحال ، نعهد إلى التوضيح للتبسيط أكثر . ومهما يكن ، فالسيميائية السردية تنحو بدورها منحى معاكساً . تنطلق من تعريف أكثر عمومية ما أمكن للفعل اللغوي الذي ترى بأنه يمكن أن يعالج كحالة خاصة .

بما أن كل فعل محدد في المستوى الأكثر أولية بوصفه تحولاً للحالة ، فإنه يفترض وجود علاقة بين عاملين على الأقل ، أحدهما فاعل، والآخر موضوع الفعل المحوّل . لا يمكن استبعاد أنه ليس للعمليات المستهدفة بهذا الشكل من مرمى غير العالم المادي كما هو ، فالذات الفاعلة تكون في مثل هذه الحال مدمجة مباشرة في البعد التداولي للفعل^(١٣) المخالف لبعدها المعرفي. لا يمكن استبعاد كذلك أن نشاط الذات الفاعلة يتموضع في البعد الثاني ، وذلك شريطة أن يتم التعامل مع العامل الآخر (الذات الفاعلة) ليس بوصفه مجرد عامل سلبي خاضع للفعل (وفي أحسن الأحوال يقاوم مقاومة سلبية) بل بوصفه مشاركاً أو خصماً حقيقياً أي قادراً ، بطريقة متبادلة ، على معرفة وجه الآخر ، وتمثله بوصفه مشاركاً أو خصماً له. وهكذا يتحوّل المتحاورون الحقيقيون، بطريقة متبادلة ، إلى عوامل متسمة بكفايات (صيغية) أو بأدوار (موضوعاتية) خاصة . فهذه التحديدات التركيبية والدلالية هي التي تضمن للذوات (بمجرد أن يضطلع بها هذا الطرف أو ذاك) كفاياتهم الخاصة للتفاعل أو (بالضبط في هذه الحالة) للتطويع : قدرتهم على فعل الفعل

بوصفهم ذواتاً لغوية . إن الهدف من البحث في التركيب والدلالة السرديين هو بالضبط صياغة نماذج عامة مُمكنة من معالجة ، بواسطة مفاهيم منسجمة ، الطريقة التي ينتظم بها توزع الكفايات (بين المشاركين في التواصل) التي يركز عليها توازن العلاقات (يكون دائماً معكوساً وهشاً) بين المطوع والمطوع . نجد هنا أن نظرية أفعال الكلام مجبرة على استجلاب العوامل من مختلف الطبائع (نفسية ومؤسسية). في هذا السياق، لا تكمن خصوصية الطريقة السيميائية في تجاهل هذا النوع من التحديدات ، بل ، بالعكس ، في البحث عن ضبط مبدأ الملاءمة الذي سيُمكن من إدماجها في إطار نظرية شاملة ، وفي عدم التعامل معها باعتبارها متغيرات خاصة ، أو محددات خارجية . تتجلى القضية - إذن - في سَمَيَاة السياق ، أو في إنجاز سيميائيات الوضعيات لما تتيسر أحسن الظروف . فإلى جانب الصوغ الجيهي aspectualisation والمؤشرات الزمكانية التي ترتبط بالمستوى الخطابي ، فإن محرك العملية الشاملة التي يضطلع بها المفهوم السردى لصوغ الصيغ modalisation ، يُتيح في الآن نفسه إمكانية فهم نمط وجود الموضوعات بالنسبة للذوات الفاعلة ، وإدراك كفاياتها بوصفها ذواتاً متواصلة فيما بينها^(١٤).

٦ - بما أننا نحن - النقّاد - اعتمدنا على قيمة العنوان التمثيلية (اللغة - في - السياق) لفتح باب المناقشة ، فإننا نود ختمه بالتوقف عند الصياغة المثيرة للعنوان ؛ وذلك باقتراح ترجمة جديدة لها (بدون شك ستكون بواسطة المصطلحات السيميائية الأقل رداة).

How to do thongs with words

عندما يصبح الكلام فعلاً.

عندما يصبح فعل الاعتقاد ، هو فعل الفعل .

إن أعدت كتابة هذه الصيغة بهذا الشكل ، فلأنها تحظى بحرية أكثر مما كانت عليه في النص الأصلي دون أن يصاب روح المعنى بأي

تحريف . تكمن وراء واجهة الكلمات (words) والأشياء (Things) إشكالية في منتهى العمومية . من المناسب ، من جهة استبدال كلمات الخطاب بمفهوم واسع جداً الممارسات الدالة ، يراعي تنوع أنساق اللغة (بالإضافة إلى الأنساق اللغوية ، هناك الأنساق الإشارية والفضائية) ، ويساهم في التعريف الصيغي لشروط التفاعل بين الذات . من الواضح ، من جهة أخرى ، أنه ليست الكلمات ذاتها هي المعنية مباشرة ، وأن الفعل الذي هو موضع تساؤل ليس هو فعل الذات المحولة للعالم ، وإنما الفعل المطوع لما وراء الذات المرسلّة التي لها القدرة على تطويع أمثالها (وبطبيعة الحال يمكن أن تتفعل من تلقاء نفسها). يفضي عملنا إلى تمييز بعدين أساسيين :

بعد مُقْتَضٍ pré-supposante يتعلق بما تحقق من إنجاز (في شكل سلوكات معينة سواء أكانت جسميّة أم لغويّة : فعل الرد ، وفعل الرفض ، وفعل الإجابة عن سؤال) ، وبعد مُقْتَضَى pré-supposée يحدث بطريقة ضمنية ، إذ يتمّ التفاوض^(١٥) بين الذات (في شكل مواجهات أو تسويات ذات طبيعة معرفية خالصة) حول ضبط العلائق التراتبية بين المشاركين ، وتحديد مبادئ لمعرفة عوالمها السياقية المشتركة بوصفها فضاءات دالة ، تكون هنا كذلك صائغة للصيغ Modalisateur . وهكذا ، يمر التطويع (فعل الفعل) غير تبادل الشبّاء العاملية (فعل الاعتقاد) ، وبمجرد تحقيقه ، يتوطد الترابط - بأثر رجعي - بين الذات المشدودة إلى تشييد حالات الأشياء ، وإلى طبيعة العلائق التي تجمعها (العقدة الاستباقية fiduciaire).

مقارنةً مع التداولية ، تقلب السيميائية في آخر المطاف نظام الأسبقيات . لا تعير أهمية كبرى لحدث الطلب أو الوعد أو الإثبات ، سواء أتحقق بالأشكال اللغوية الظاهرة والمقتنة ، أم بأفعال لغوية غير مباشرة ، أم بهذا السلوك الإشاري أو ذاك . تقتضي مثل هذه الأفعال

وجود بنيات أكثر عمقاً قادرة وحدها على جعلها أكثر إجرائية . وهو ما تعترف به ضمناً نظرية أفعال اللغة ؛ وذلك بإدماج مختلف المتغيرات السياقية شيئاً فشيئاً . من ثمة ، تظهر الأهمية المنهجية للنماذج العاملة والسردية التي تعالج (وهي متموضعة في مستوى أكثر تجريداً) دفعة واحدة الإنتاج السيميائي للوضعيات وتشبيد الذوات (أو شِبَاهِهَا) أي الشروط البنائية للتفاعل .

الهوامش

1 - Pargmatique et Sémiotique, Actes Sémiotiques, Documents, V 50, Institut National de la langue Française, 1983.

٢ - ندرج في هذا الصدد على سبيل المثال عمليتين حاولا تجسيد المنظور العبري - ميداني : transdisciplinaire

- Marina Sbisà et Paolo Fabbri. "Models for a Pragmatic Analysis", Journal of Pragmatics, 4, 1981.

- Parret (Herman) Semiotics and Pragmatics An Evaluative Comparison of conceptual Frame Works, Amsterdam - Philadelphie, Benjamins, 1983.

٣ - [تشمل إجراءات التخاطب (الذي يكون التركيب الخطابي والمستوى السطحي للبنى السميائية) عمليات الانفصال والاتصال، والمحفل التلفظي، والتزمين، والتفضية]، المعرب، انظر إلى :

- Greimas (A.J) Courtes (J), Semiotique Dictionnaire raisonné de la théorie du langage 1979, P 107.

4 - Parre (H), Le langage - en - contexte, Etudes philosophiques et linguistiques de pragmatiques, Amestrdam, Benjamins, 1980, 190 P.

ويتكون هذا الكتاب الضخم من الأسفار التالية :

- Pharret, Pragmatique philosophique et Epistémologique de la pragmatique : Connaissance et Contextualité.

- Apostel (Leo), Pragmatique praxiologique : Communication et action.

- Gauchet (Paul), Pragmatique formelle : théorie des modèles et compétence pragmatique.

- Van Overbeke (Maurice), Pragmatique linguistique : Analyse de l'énonciation en linguistique moderne et contemporaine.

- Ducrot (Oswald), Pragmatique linguistique : ٣ Essai d'application : Mais, Les allusions énonciation Délocutifs. Performatifs indirect.

- Tasmowski - De Ryck (Liliane), pragmatique linguistique : 3 Essai d'application : Imperatif et Actes de langage.

- Dittmar (Norbert) et Wildgen (Wolfgang), Pragmatique psychosociale : Variation et Conexte sociale.

٥ - المسار الذي يمكن أن تحدد المؤلفات التالية معالمه الكبرى :

- Sémantique structurale (1966), Du sens (et particulièrement "Eléments d'une grammaire narrative") (1970 Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage (1979).

٦ - آخر من حاول، في حدود علمنا، عدم تجاهل ذلك هو بيير بورديو P. Bourdieu.

- Ce que parler veut dire. l'économie des échanges linguistiques, Paris, Fayard. 1982.

٧ - نذكر على سبيل المثال :

- Récanati (F) : La transparence de l'énonciation, Pour introduire à la pragmatique, Paris, Seuil, 1979.

٨ - [التحقق هو البحث عن الحقيقة داخل النص ، تدل عليه مؤشرات تتركز على المحفل التلفظي (الفعل الإقناعي للمتلفظ Enonciateur والفعل التأويلي للمتلفظ له Enonciataire ، وتعمل على ضمان الانسجام الخطابي . ويتشخص التحقق في الخطاب / الملفوظ كحقيقة ، وزيف ، وكنب و سر ؛ وهي العناصر التي تتمج فيما بينها مت علاقات داخل فضاء المربع السيميائي] المغرب ، انظر إلى السيميائية ، المعجم ، م. سا . ص ٤١٧ .

9 - Jean - Marie Floch, "Sémiotique et langage publicitaire", Actes Sémiotique - Documents, III, 26, 1981.

10 - Denis Betrand "Du figuratif à l'abstrait. les configurations de la spatialité dans Gérminal", Actes Sémiotiques - Documents. IV, 39, 1982.

١١ - فيما يخص هذه النقطة انظر إلى :

- Parret (H) : " La mise en discours ", Langage, 70, 1983.

١٢ - على سبيل المثال :

A.V Cicourel "Langage and Social interaction : Philosophical and Empirical issues", Working papers, Urbino, Centro Internazionale di Semiotica e Linguistica, 96, 1980.

١٣ - هنا يتشيد مشروع سيميائية تداولية بالمعنى الأول للمصطلح أو سيميائية الممارسة Praxis . انظر في هذا الصدد إلى :

- A. J. Greimas "la soupe au pistou ou la construction d'un objet de valeur", Du sensII, Paris, Seuil? 1983.

- Bastide (F) "la fole lavé", Actes Sémiotiques - Documents, I, 7, 1979.

- Landowski (Eric), "Pour une sémiotiques de la stratégie", Actes Sémiotiques - Bulletin, VI, 25, 1983.

١٤ - انظر على وجه الخصوص إلى :

- Langage, 43. 1976 (Modalités) et Actes Sémiotiques - Bulletin, 23, 1982 (Figures de la manipulation).

١٥ - حسب تعبير مارينا سبيصا وباولو فابري ، " نماذج للتحليل التداولي " ، م . سا .

